ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

أضواء حول بعض المؤلفات بايلك الغرب الجزائري من خلال المجلة الإفريقية

Highlights of some works in Baylak, the West of Algeria through the African Journal

د. كمال بن صحراوي*
Dr.BENSAHRAOUI kamel
أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث والمعاصر
– شعبة التاريخ– قسم العلوم الإنسانية– جامعة ابن خلدون– تيارت.
البريد الإلكتروني: k_bensahraoui@yahoo.fr

Abstract: *Through the article we will try to get in the world of "La Revue Africaine" which is full of studies, to get to know the intrests of its authors for the writing movement of the Algerien western Beylik, showing the nature of their treatment for those textes, their authors, their related events and the method followed in these studies, mentioning the misjudgments made by those French especially having hidden many writings after exhausting them.*

And inspite of the dangerous goals of these French studies, we point to their importance following what was written about Oran's colonisation and liberation, and the people responsible for that on both fronts Spanish and Algerien, and the effects of the occupation on the Algerien environment especially in the countryside, and the role of the governors in the subjugation of the tribes to the Ottoman authorities, in addition to the interaction with the social cases like the clame of nobility and its results such as the schoolers opinions and the problems with the tribes.

As these studies in "la Revue Africaine" didn't ignore the foreigner authoring that was in the western Beylik like Thedenat memoirs that contained its author's experience in the palace of "Bey Mohamed El Kebir" and reported a deep image from this monument about the life of the commoners in the Beylik and about the regard of the governor to the French prisoner more then the others, but the studies didn't stop there it even followed his life after returning to his country exposing the dangerous roles he played as a module of the ambitious foreigner that falls under the colonial plan.

key words: *Algerien western; the writing movement; French studies*

مقدمة: اكتست المجلة الإفريقية أهمية خاصة واستقطبت اهتمامات الباحثين نظرا للمواضيع التي احتوت عليها، فقد كتب الفرنسيون– في أعدادها التي فاقت المائة وعلى مدار أكثر من قرن–

* تاريخ استقبال المقال:2017/06/20 تاريخ المراجعة:2017/09/28 تاريخ القبول:2017/10/04

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

في آلاف المواضيع السياسية والتاريخية والاجتماعية والثقافية، وإذا كانت قد حوت في أعدادها مواضيع متعلقة بشمال إفريقيا عموما فإنها ركزت على تاريخ الجزائر، ولا يمكن أن ينكر عاقل ما قدمته "الجمعية التاريخية" ومجلتها "للجزائر المستعمرة" من خلال البحث في المجالات المختلفة خصوصا الاجتماعية، لكن أقلامها وضعت هدفا كبيرا صوب أعينها ممثلا في كتابة هذا التاريخ من وجهة نظر فرنسية لتوهم أهل البلاد أن تاريخهم إنما بدأ فعلا مع قدوم الجيوش الفرنسية الحاملة لآليات الحضارة، ولترسخ في عقولهم فكرة الاحتلال المتكرر للجزائر والذي يعطي الحق لآخر محتل حل بها.

كما سعت هذه الكتابات إلى أن تقدم للإدارة الاستعمارية وسائل السيطرة على البلاد من خلال تزويدها بالمعلومات الضرورية عن السكان وطبائعهم ولهجاتهم ومناطق السكنى وطبيعة الأراضي وملكياتها، ووفرت معطياتٍ غنية عن الثورات الشعبية ورجالاتها، والمدارس وعلمائها والتاريخ المحلي وخصوصياته، واهتمت بالتاريخ الروماني وقدسته لتصنع منه أنموذجا حيا يتعلق به القادمون الجدد الذين لفظتهم القارة الأوروبية بسبب تفاعلات الثورة الصناعية والتحولات السياسية العميقة التي خلّفتها.

واستحوذ الفرنسيون على المخطوطات التي وقعت عليها أيديهم بالجزائر، وكان بربروجر واحدا من الشخصيات المؤثرة في هذا المجال؛ فقد أصبح كاتبا خاصا للجنرال كلوزال، وصحب الجيش الفرنسي وهو يتحرك للسيطرة على معسكر ووهران وقسنطينة، وكان هدفه جمع المخطوطات الضرورية ليكوّن منها لاحقا ما يسمى بالمكتبة الوطنية التي اتخذت مقرا لها– مع المتحف الوطني– بدار الحاج عمر صهر الداي حسن، وحين أنشأ المجلة عام 1856م بذل جهدا كبيرا جدا في تزويدها بالمقالات تشجيعا لها وإثراء لمحتوياتها، حيث نشر بها أكثر من 100 مقال.

وكان حظ بايلك الغرب الجزائري من كتابات المجلة الإفريقية وافرا خصوصا ما تعلق بالوجود الإسباني حيث اهتم الباحثون بمدينة وهران والمرسى الكبير، والشخصيات الإسبانية التي كان لها دور في تنشيط الفعل الاستعماري، ودور القبائل المحلية في التمكين للإسبان، ومحاولات التحرير المتكررة سواء الفاشلة أو تلك التي تمكنت من تحقيق الهدف عامي 1708م

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

و1792م. غير أننا سنقتصر في هذا المقال على ما حوته المجلة الإفريقية من معالجة لمؤلفات كتبت بباليك الغرب الجزائري، وتركت أثرا بالغا في طبيعة الكتابة التاريخية، وحتى على مستوى التأثير الاجتماعي كما سنرى، وكان هدفنا تعريف القارئ بهذه المؤلفات من جهة، وبالجهد الفرنسي في دراستها من جهة أخرى.

1- أبو راس الناصري؛ مؤرخ جديد بإفريقيا الشمالية[1]: يبدأ الباحث Gorguos مقاله هذا بالحديث عن القصيدة التي ألفها أبو راس الناصر في الباي محمد الكبير الذي بذل جهدا كبيرا لاستعادة وهران من الإسبان، ويذمها منذ البداية- وهي من بحر "الكامل"- لأنها لم تتقيد لا بالوزن ولا بالقافية، لكنها أعجبته من حيث المعلومات التي جاءت بها حول العرب والبربر والأتراك في إفريقيا الشمالية منبها إلى أنها حوت معلومات غفل عنها ابن خلدون أو حدثت وقائعها بعده، ولعل هذا هو ما جعله يشيد بصاحبها مقرا أنه كان كثير القراءة قليل المشاهدة، ومُنوِّهًا بالمعلومات "الجديدة" التي تضمنتها القصيدة قائلا: **"لقد فكرت في أن أستخلص من هذه القصيدة كل ما يتعلق بتاريخ الشعوب الإفريقية التي تعيش اليوم تحت سيطرتنا، لأضعه بين يدي قراء المجلة"**.

لم يكن أبو راس الناصر حاضرا زمن حصار الباي الكبير لوهران بهدف تحريرها (1791)، ورغم ذلك فإن الأخبار وصلته وهو في تونس، ولقد لاحظ انتشارها في مدن تونسية كثيرة كسوسة وصفاقس والمنستير وجربة، وهو ما شجعه على كتابة قصيدته السينية **"نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران"**، غير أن بساطة أسلوبها جعلته يحولها إلى تأليف يحمل العنوان التالي **"عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"**، وقد ضمّنه أبو راس أخبارا هامة تتعلق بالحصار والتحرير والعلماء المشاركين فيه والقبائل المتعاونة مع الإسبان، إضافة إلى مواضيع أخرى متشعبة بعيدة عن موضوع الفتح.

والجدير بالذكر إذاً أن Gorguos لم يترجم القصيدة، وإنما درسها واستخرج منها ما رآه جديرا بالحديث، وقد أشار إلى تسمية أبي راس بهذا الاسم وذهب إلى احتمال كبر هذا الجزء من جسمه، وعمد إلى تصحيح الأخطاء التي حملتها أبيات القصيدة، ومن ذلك مثلا:

وتحت اليهود غداة غريبة*يعاليها والخنزير فوق المزابر**

فقال: **"البيت خاطئ ولا يعطي أي معنى، وقد توقعت أنه وجب القول":**

وتحت اليهود غادة عربية * يلاعبها الخنزير فوق المزابر**

كما لجأ Gorguos– بخصوص بعض الأسماء الواردة في القصيدة– إلى مقارنتها بتاريخ ابن خلدون الذي سلمه إليه De Slane كما ذكر، وتوقف عند بعض الشخصيات فعرّفها تعريفات مقتضبة كأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي الذي ذكر تاريخ وفاته بمدينة الجزائر (875 هـ)، وأن ضريحه كان محل تقديس من قبل حكام المدينة، ومن باب التأكد لجأ إلى مقارنة ما جاء به أبو راس مع شجرة نسب الثعالبي الموجودة بزاويته، ونقل إلينا جميع الاختلافات.

رداءةُ القصيدة– كما جاء عند كثير من الباحثين– لم تمنع Gorguos من الاهتمام بها ودراستها؛ فأخرج منها موضوعا موزعا على ثلاثة مواضع لكن في نفس العدد، وهو ما يسهل على القارئ متابعته.

2- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار[2]: هذه ترجمة لمخطوط أبي راس الناصري "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" قدمها المترجم العسكري أرنو موزعة على الأجزاء المذكورة أدناه.

وأصل الكتاب قصيدة أبي راس السينية "نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران" التي ضمنها حديثه عن فتح وهران، ومدح فيها الباي محمد الكبير الذي بلغته أخبار فتحه وهو في تونس، وقد أشرنا سابقا إلى أن بساطة أسلوب القصيدة جعلته يحولها إلى تأليف يحمل العنوان المذكور، والذي ضمّنه أخبارا هامة تتعلق بالحصار والتحرير والعلماء المشاركين فيه والقبائل المتعاونة مع الإسبان، إضافة إلى مواضيع أخرى متشعبة بعيدة عن موضوع الفتح.

والملاحظ انتصار أبي راس للبايلك في كتاباته التي لم تخل من مدح البايات وسياساتهم، ومن ذم المعارضين لهم خصوصا درقاوة التي ألف فيها كتابا مازال في حكم المفقود عنونه بـ"درء الشقاوة في حرب درقاوة"، وهو موقف لم يتفرد به أبو راس حيث كان ابن هطال مثلا قد ساند البايلك ضد معارضيه، وأشاد بما قام به "سيده" الباي محمد الكبير "قامع المبغضين ومدوخ المارقين" بل قدم حياته ثمنا لهذا الولاء حيث لقي حتفه في معركة فرطاسة، وهو يساند الباي المنزالي ضد ابن الشريف الدرقاوي.

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

ملاحظة: تم تحقيق كتاب عجائب الأسفار في جزأين من قبل الأستاذ محمد غانم، كما حققه في جزأين أيضا الأستاذ محمد بوركبة ضمن رسالة دكتوراه بجامعة وهران.

3– إتلاف مخطوط أنوار البرجيس لأبي راس الناصري[3]: هذا موضوع خطير جدا فيه اتهام واضح لأولاد سيدي دحو بإتلاف كتاب أبي راس الناصر المتعلق بأنساب سكان جهة غريس والشرف المدّعى من قبل كثير منهم، ولم يخلُ ذكر غيرهم كالمشارف وأولاد سيدي قادة من الاتهام بالتواطؤ لأن الأمر كان يمس قاعدة الشرف هذه، والتي هدمها المؤلف ببيان الأنساب الصحيحة لبعض القبائل المشهورة بباليك الغرب.

كان الشيخ أبو زيد بن عبد الرحمن التيجيني قد كتب "العقد النفيس في أعيان أهل غريس" في القرن الحادي عشر الهجري (يقابل الفترة ما بين 1591 و1688 من التاريخ الميلادي)، وخصصه لترجمة بعض علماء هذا القرن أمثال سي دحو بن زرفة، سي محمد بن يحيى، سي علي الشريف، سي عبد القادر بن مختار وغيرهم.

ورغم أهمية الكتاب في نظر الناس في البداية فإن البعض قد وقف على كثير من نقائصه ولذلك طُلب من الجوزي بن محمد استدراكها، وهو ما قام به[4] متتبعا حياة كل عالم حتى وفاته ومقدما شجرة النسب التي توصل إليها، غير أنه لم يتحقق من مسألة النسب التي صار ادعاؤها شائعا للغاية في هذه المرحلة وبالذات في جهة غريس، وهذا ما جعل الشيخ أبا راس الناصر يتدخل واصفا عمل الشيخ أبي زيد التيجيني بالناقص، ومسجلا عليه بعض الملاحظات، ولم يقف تدخله عند هذا الحد وإنما قام بتأليف كتاب لم يخلُ عنوانه من معنى الترفع؛ "أنوار البرجيس في شرح العقد النفيس"، والبرجيس هو الكوكب المعروف بالمشتري (Jupiter)، وقد ذكره أبو القاسم سعد الله بالعنوان التالي: "إيضاح الغميس وأنوار البرجيس بشرح عقد الجمان النفيس"[5].

كان كتاب أبي راس إذًا شرحا لكتاب أبي زيد، وهو ما أخاف العائلات التي ادعت الشرف فعملت على عرقلة أبي راس حتى لا يُتم كتابه خاصة وقد علمت– من بعض المقربين منه– أنه مصمم على بيان أنساب العائلات التي تنتمي إلى بني توجين بمعنى العائلات البربرية الزناتية، لكن المساس بأبي راس لم يكن سهلا ولا عرقلته؛ فهو يحظى بالقرب من الباي ومن

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

الموظفين الكبار، وكتاباتُه محل تقدير من الجميع؛ فإذا أقدم أحد على المساس بها كان مصيره العقاب الشديد.

ولذلك كان على هؤلاء الانتظار حتى وفاة أبي راس عام 1823م ليتخلصوا من هذا التأليف الذي أزعجهم، فقررت بعض العائلات– التي أرادت أن تحظى بمكانة رفيعة في مجال النسب العربي كالمشارف، أولاد سيدي قادة وأولاد سيدي دحو الذين منهم سي السنوسي بن عبد القادر وسيدي الحاج بن مصطفى– اتخاذ خطوة نتائجها مضمونة، وكانت عن طريق مفتي معسكر سي محمد بن أبي راس الناصر الذي كان غير قادر على رد طلب أولاد سيدي دحو حيث طلبوا منه إعارتهم كتاب والده لأيام للاطلاع عليه، فأعارهم إياه طالبا منهم العناية به.

ومرت الأيام ومحمد بن أبي راس يطالب أولاد سيدي دحو بإعادة الكتاب غير أنهم ظلوا يماطلون حتى جاءه خبر مفاده أنهم أتلفوا كتابا جديدا فعلم أن الأمر يتعلق بمؤلف والده؛ فشكاهم إلى الباي حسن الذي استقدمهم فحلفوا بالله أن الأمر محض افتراء، لكن الباي لم يصدقهم وأمر بسجنهم، وبعد بضعة أشهر خافوا على أنفسهم فطلبوا مساعدة أحد المسؤولين الكبار وكان مقربا من الباي؛ فأقنعه بإطلاق سراحهم مقابل مبلغ من المال.

كانت 4000 ريال كافية ليخرج أولاد سيدي دحو من السجن، وقررت قبائل غريس جمع المبلغ؛ فركب 40 فارسا وتوجهوا إلى الدواوير، وحصل أن وصلوا إلى بيت سيدي علي بن يوسف بن عبد القادر الذي رفض إعطاءهم مالا فألحوا– مهددين بالبقاء عنده حتى يدفع المال وعليه إطعامهم وتوفير العلف لأحصنتهم– فدخل خيمته وعاد إليهم ببعض المال، وقبل أن يرحلوا قال لهم: "إن الحافظ أبا راس كان له الحق ألف مرة حين اعتبر– في كتابه الذي أتلفه أصحابكم– سكانَ هذه الجهة من غير الأشراف".

4- عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس[6]: هذا المقال له علاقة بسابقه، حيث لجأ صاحبه قوان–Guin– إلى التعريف بكتاب الشيخ أبي زيد بن عبد الرحمن التيجيني المعنون بـ"عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس" الذي ترجم فيه لمجموعة من العلماء والأشراف الذين سكنوا جهة غريس من أرض معسكر خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وتحدث فيه أيضا عن أصول قبائل هذه الجهة مشيرا إلى أن هذا المؤلف كان

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

تلميذا لابن زرفة الدحاوي، وقد خصص له ترجمة ضمن الكتاب كما اعتمد Guin فقرة تحوي ترجمة للمؤلف كتبها محمد الجوزي بن محمد الراشدي المزيلي في شرحه لعقد الجمان النفيس المعنون بـ"**فتح الرحمن في شرح عقد الجمان**".

وجدير بالتذكير أن المؤلف أبا زيد لم ينتبه إلى الأنساب الحقيقية فوقع في الخطأ، وهو ما دعا أبا راس الناصر إلى تأليف شرح لهذا المؤلَّف عنوانه: "أنوار البرجيس في شرح العقد النفيس".

والكتابة في الأنساب والشرف صعبة جدا وذات أبعاد اجتماعية خطيرة؛ فقد كان لهذا التأليف وشرحه نتائج وخيمة حيث لجأ بعض سكان غريس إلى تغييب كتاب أبي راس عمدا حتى لا يؤثر على ادعائهم النسب الشريف.

يشير Guin إلى أن صاحب عقد الجمان النفيس قسم الشرف إلى الأقسام التالية:

1- الشرف الخاص وينالـه المنحدرون من علي وفاطمة الزهراء، والذين ينحدرون من آباء "شرفاء" وأمهات "شريفات"، وذكر هنا ما يعرف "بالمحضي" وهو الذي ينحدر من أب شريف تزوج ابنة عمه أي من زوجين يشتركان في جد شريف واحد.

2- الشرف العثماني: الذي يعود إلى عثمان بن عفان ورقية بنت رسول الله.

3- الشرف العام: ويشترك فيه القرشيون.

كما يعرج الكاتب Guin على معنى غريس أي المنطقة التي يتناولها التيجيني بالدراسة والقبائل التي تسكنها خاصة الحشم الذين ينعتهم بالظلم وعدم الخضوع لأي سلطة، ثم يتتبع ما أورد المؤلف في الكتاب ابتداء من الصفحة 247.

5- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان[7]: يبدأ دلباش تلخيصه لكتاب ابن مريم "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" الذي أنهاه صاحبه عام 1014هـ (1605م–1606م) بذكر من سلّمه هذا المؤلَّف، وهو سي براهيم بن الزروقي باش عدل بمدينته الأصلية تلمسان، والتي ينحدر فيها من عائلة عريقة، ثم يعرّج على ذكر الشيخ محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن مريم المولود بتلمسان، والذي ترجم لحياة العديد من صلحائها وعلمائها سواء الذين ولدوا بها أو الذين التحقوا بها قادمين إليها من جهات أخرى.

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

وقبل البدء في عرض الملخص أبدى دلباش الملاحظات التالية:

1- يترجم ابن مريم لأناس عُرفوا بالعلم والتقوى ونالوا اعتراف معاصريهم.

2- لم يعتنِ ابن مريم بكل جوانب حياة المترجم لهم.

3- أهمل ابن مريم التواريخ رغم أهميتها في تاريخ البلاد، وهذا ما حاول دلباش استدراكه قدر المستطاع.

4- لم يلخص دلباش كل ما ورد في البستان معللا ذلك بأن ابن مريم تعرض إلى قضايا غير هامة.

5- احترم دلباش الترتيب الأبجدي الذي أورده المؤلف في "البستان".

6- بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر[8]: هذه ترجمة لكتاب "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر" يعرضها علينا بودان Bodin، ويقدم لهذا العمل بالحديث عن الفرق بين جهود الإسبان في وهران ومثيلاتها بالمغرب الأقصى في مليلية مثلا حيث كانت نشطة في الأولى دون الثانية مقدما مبرراتٍ لذلك من بينها أن المدينة المغربية محاطة بجبال تسكنها قبائل قوية، ولم يكن من الحكمة أن تقوم الحاميات الإسبانية بإزعاجها خوفا من رد فعلها.

ولم تكن إسبانيا لتفكر أبدا في توسيع نقاط سيطرتها في شمال المغرب، بل فكر مسؤولوها– على عكس ذلك تماما– في إخلاء مناطق نفوذها هذه مرتين في 1764م وفي 1772م بناء على ما أسماه الكاتب "قيمة السكان السياسية"، ذلك أنهم رأوا في الشعب المغربي شعبا حقودا غير قابل للآخر؛ أي الأجنبي الكافر، خصوصا وأن هذا الشعب ذو حضارة ضاربة في القدم وله ثقافة مختلفة تماما عن ثقافة الإسبان.

ومن بين الحجج التي يسوقها الكاتب بخصوص مليلية دائما قضية العلاقات الحسنة التي عمل الملك الإسباني كارلوس الثالث (1759-1788م) والسلطان المغربي سيدي محمد بن عبد الله (1757–1790م) على المحافظة عليها باعتبار وجود عدو مشترك هو إنجلترا، ولذلك طالت فترة السلم– باستثناء محاولة المغرب الهجوم على مليلية عام 1775م– مثلما طالت فترة حكم هذين الملكين.

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

وعلى عكس هذا تماما كان إسبان وهران يسيطرون على سهلي مليتة وسيرات، وهو ما جعل القبائل تهادن المدينة لتستفيد من المراعي الهامة الموجودة بالسهلين، وكانت هذه المهادنة محفزا لعبد القادر المشرفي ليؤلف فيهم كتابه المذكور سابقا، وهو يوفر للقارئ– حسب الباحث– فرصة التعرف على هذه القبائل بأسمائها غير أن صاحب المقال شكك في بعض هذه الأسماء بناء على ما أورده Gorguos بالمجلة الإفريقية (Vol 5, p119) اعتمادا على Clariana.

ولا يقدم الباحث ترجمة وافية للمشرفي، وإنما يكتفي– اعتمادا على تلميذه أبي راس الناصر– بذكر حضوره حادثة استعادة مدينة وهران من قبل الإسبان عام 1732م مضيفا أن تأليف الكتاب كان سنة 1764م، وابتداء من الصفحة 197 ينشر Bodin كتاب المشرفي حتى الصفحة 220 ليبدأ بعدها عملية الترجمة، والتي تستمر حتى الصفحة 261 مع إدراج بعض التعليق والتوضيح في الهوامش.

7- حملة الباي محمد بن عثمان الكبير على الشلالة[9]: هذا مؤلَّف حول حملة الباي محمد بن عثمان الكبير على الشلالة الظهرانية أي الشمالية لمحمد بن بلقاسم الزاوي، وهو شبيه بمؤَلَف ابن هطال التلمساني "رحلة الباي محمد بن عثمان الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري"، وكتاب الزاوي هذا مفقود غير أن برنيي حصل عليه في القرن التاسع عشر وترجمه، لكن هل ترجمه حرفيا أم اكتفى بتسجيل بعض التقاييد بناء على ما ورد فيه؟؟ ثم هل كان العنوان من وضع المؤلّف اقتداء بابن هطال أم إن المترجم هو صاحب المبادرة؟ وقد أشار في آخر مقاله إلى أن الزاوي كتبه في ربيع الأول عام 1255هـ/ماي 1839م.

وفي آخر المقال أيضا إشارة هامة من الناشر حول عمل الجنرال Deligny والمترجم العسكري Theuma المنشور في Le Moniteur Algérien في الأعداد 803-807-808-809 بتاريخ 03- 10-15-20 فيفري 1857 والمسمى «Relation de l’expédition du Bey Mohamed El Kebir sur Chellela» الذي تضمّن– بعد بيان أوضاع البايلك عام 1786م وتوضيح أسباب الحملة على الشلالة– نقلا للكتاب إلى اللغة الفرنسية، ثم

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

يوضح بأن ما نشراه ليس هو الذي تحدث عنه Bresnier وإنما كل من العملين يكمّل الآخر.

8- الثغر الجماني لابن سحنون الراشدي ورحلة الباي الكبير لابن هطال التلمساني[10]:

انطلق قورقوس من مكانة الباي محمد الكبير لدى الناس ببايلك الغرب وفي إيالة الجزائر، واعتبر ذلك هو المحفز على البحث في حقيقة هذا الباي والنعوت التي لصقت به؛ هل كان يستحقها فعلا أم أنها أُضْفِيَتْ عليه بغير حق.

وقد قاده هذا البحث إلى الحديث عن وهران التي صارت عاصمة البايلك بعد تحريرها الثاني من الاحتلال الإسباني عام 1791م، وزعم قورقوس أنه توصل إلى معرفة قضايا مجهولة في تاريخ هذه الجهة "التي صارت من ممتلكاتنا" على حد تعبيره، والشخصيات التي عاشت فيها.

وقد قسم الباحث مقاله إلى قسمين أساسيين:

أ- الحديث عن حياة الباي محمد بن عثمان ثم الاستطراد حول مدينة وهران وحملات التحرير الفاشلة التي طالتها خلال السيطرة الإسبانية، وهذا كله انطلاقا مما جاء في **"الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"** لابن سحنون الراشدي، والذي احتوى الكثير من المبالغة وهو يسرد التفاصيل عن الباي الكبير، أما ترجمة عنوان هذا الكتاب إلى الفرنسية فقد بدت لقورقوس صعبة جدا، حتى قال إن هذه الكلمات غير قابلة للترجمة، ورغم ذلك صاغها في العنوان التالي: Les dents de perle imitant de la conquête d'Oran

ب- ترجمة حرفية تقريبا لما ورد في مؤلّف كاتب الباي ابن هطال التلمساني **"رحلة الباي محمد بن عثمان الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري"** الذي تحدث فيه عن هجوم هذا الباي على سكان البايلك من جبل راشد إلى الأغواط وعين ماضي.

وجدير بالملاحظة أن كاتب المقال جعل هجوم الباي على الأغواط وعين ماضي عام 1199هـ وقابله بعام 1781م، وهي مقابلة خاطئة إذ أن هذه السنة الهجرية يقابلها من التاريخ الميلادي عام 1785م.

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

وفي إطار الحديث عن هذه الحملة تحدث الكاتب عن القبائل التي مر بها الباي وأجبرها على الخضوع، ومنها قبائل الأحرار الذين كانوا دوما رافضين دفع الضريبة وكذا حميان وقبائل العمور، كما أشار قورقوس– في معرض الحديث عن كرم الباي الكبير– إلى علاقات البايلك مع باي تونس وسلطان المغرب محمد بن عبد الله من خلال تبادل الهدايا.

9- **مذكرات تيدينا**[11]: هذا مقال لإيميريت حول مذكرات تيدينا؛ وهو العبد الذي عاش في قصر الداي محمد الكبير بمعسكر، ويبدأه بترجمة صاحب المذكرات الذي ولد بـUzès عام 1758م، وكان ينتمي إلى عائلة بورجوازية حاولت رسم خط حياة ابنها من خلال إدخاله إلى مدرسة دينية، غير أنه تمرد واختار لنفسه الحياة العسكرية، ثم مال إلى السفر عبر البحر لممارسة التجارة، وهو ما أوقعه أسيرا في يد البحارة الجزائريين.

يذكر كاتب المقال أن علاقات حسنة كانت تربط فرنسا وإيالة الجزائر عام 1779م غير أن تيدينا ألقي عليه القبض على متن سفينة إسبانية فاعتبر معاديا واقتيد أسيرا إلى مدينة الجزائر، ثم بيع إلى وكيل باي معسكر محمد بن عثمان الكبير الذي رقاه في المناصب حتى صار خزندار أي مشرفا على الجانب المالي بالقصر.

ومثلما تحدث تيدينا عن قصر الباي، وأعطى صورة عن حياة المسلمين بشكل عام تحدث عن فرنسا القرن الثامن عشر وتقاليدها؛ فبعدما تعرض "لاستبداد" التقاليد الإسلامية– حسب إيميريت– ها هو يتعرض لتعسف التقاليد المسيحية كالسلطة الأبوية المناقضة لقوانين الطبيعة.

غير أن تيدينا لم يرقَ إلى درجة الفيلسوف روسو وهو يحاول أن يطلعنا عبر أسلوبه الفقير على مغامرات الحب التي كان يخوضها كل يوم، ومع ذلك تعتبر قصصه الحقيقية مساهمة في التعرف على الحساسية البورجوازية عشية الثورة الفرنسية.

كما يشبّه إيميريت تيدينا بـ Le Chevalier des Grieux الذي ربطته علاقة حب بـ Manon Lescault وهما بطلا قصة ألفها l'Abbé Prévost ونشرت عام 1731م، ويعتبر وجوده بقصر الباي سببا في عدم ثبات طبعه.

كان تيدينا يحسن الإسبانية والإيطالية والعربية، وقد فكر في دخول عالم الدبلوماسية منذ 1785م سنةِ كتابة مذكراته– بعد رجوعه من الجزائر– فاستقر بصقلية وظل أربع سنوات ببالرما،

وبها تزوج من Del Vento التي سيضيف اسمها إلى اسمه لاحقا فيصبح Thédenat-Duvent، وفي 1789م ذهب إلى مسين Messine، ثم اشتغل مع القنصل Lallemant وصار مستشاره.

ثم يتتبع إيميريت حياة تيدينا خطوة بخطوة؛ زواجه وإنجابه ومشاركته في الثورة، وتبوأه لمناصب دبلوماسية عليا ومنها نائب قنصل بجنوة، ونائب قنصل بالإسكندرية تحت حكم نابليون بونابارت، ثم قنصل بالقاهرة تحت حكم لويس الثامن عشر.

وحين قرر نابليون الهجوم على مدينة الجزائر جمع تيدينا ذكرياته وكتب مذكرة عنها عنوانها: Coup d'œil sur la Régence d'Alger وبعث بها إلى تاليران مذكرا من خلالها بما قامت به البحرية الجزائرية، وبأن قوة الداي قائمة على جبن الدول التجارية المستعدة دوما لدفع الإتاوات، وبأن حملة قوية على الجزائر تجعل فرنسا سيدة عليها، ولن يكلف ذلك الدولةَ شيئا لأن ملايير الداي وحدها– حسب تيدينا– تغطي كل التكاليف.

وبهدف نجاح الحملة اقترح تيدينا أن تتم مهاجمة تنس ثم الزحف على مدينة الجزائر لإجبار الداي على تسليم ذهبه وجميع سفنه الحربية، لتصنع فرنسا من الجزائر– عند احتلالها– دولة متحضرة وتجارية، ويذكرنا إيميريت بأن هذا العمل الذي قام به تيدينا تناوله كثيرون بالدراسة ومنهم Charles-Roux في كتابه France et Afrique du Nord avant 1830: Les Précurseurs de la Conquête، غير أن هذه الذكريات القديمة التي ارتكز عليها تيدينا لم ترقَ إلى درجة مذكرات، ذلك أنه حاول تحريك صراع يكون له دور هام فيه ولكن بونابارت فهم– أكثر من الأسير السابق– أن صعوبات جمة ستعترض من يحاول بعث حملة مماثلة.

وبخصوص مصر حاول تيدينا إبراز آرائه في إمكانية تطوير بلد إسلامي شريطة أن يتم ذلك تحت إدارة رجل مستنير، وكان محمد علي صاحب هذه المكانة؛ فكتب له قصيدة وألقاها على سمعه في إحدى الحفلات بعد أن ترجمت إلى التركية، كما أهداه كتابه التالي الذي ألفه حول إدارة مصر المدنية والعسكرية: L'Egypte sous Mehemet-Ali, ou Aperçu rapide sur l'administration civile et militaire de ce Pacha (1822). ولم يكن في الحقيقة مدحا للباشا بقدر ما كان مجموعة من التوجيهات لقيادة مصر من هذا القنصل

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

الذي سمح لنفسه بالمطالبة ببعض الحرية للزراعة والتجارة والصناعة، وفي النهاية كتب مذكرة حول الحملة على الوهابيين عنوانها: Mémoires sur la Compagne de Mehemet-Ali, Pacha d'Egypte contre les Wahabites. غير أن هذا الكتاب لا يوجد بأي مكتبة بباريس (أيام نشر المقال عام 1948م) ولعله لم يرَ النور أصلا.

لم يغتنِ تيدينا من عمله الدبلوماسي على مدار 40 عاما، فقد ربى أبناءه السبعة بصعوبة، وتراكمت عليه ديون بلغت 24000 فرنك حين أحيل على التقاعد، ولم يكن كاتبا لامعا ولم تتميز كتاباته بشيء خاص، ولكنه كان أحد الغربيين الذين حاولوا فهم العالم الإسلامي، ولذلك كانت المادة التي حررها هامة للذين يؤرخون للجزائر خلال العهد العثماني.

وضمن القسم الثاني من مقال إيميريت نجد حديثا عن مصادر تاريخ الجزائر خلال القرن الثامن عشر، وأهمها– حسبه طبعا–كتاب الدكتور شو القسيس الإنجليزي بمدينة الجزائر بين 1720 و1732م إضافة إلى كل من الألماني هابنسترايت ومواطنه رهبندر Rehbinder والقنصل الإنجليزي بروس Bruce والفرنسي فونتور دو بارادي الذي يمثل أهم مصدر، وجدير بالملاحظة أن إيميريت أورد عناوين كتب هؤلاء جميعا في الهوامش.

أما غير هؤلاء فيعتبرهم علماء طبيعة أمثال Peyssonnel وDesfontaines الذي زار معسكر قادما من مدينة الجزائر بمعية ساعاتي دوفيني (ينحدر من دوفينيا Dauphiné جنوب شرق فرنسا) وأمضى 20 سنة في خدمة الداي، ورغم أن كتاب دوفونتان كان حول الغطاء النباتي بشكل عام فإنه يسمح بمراقبة بعض التأكيدات التي قدمها تيدينا، وإن لم يُمضِ سوى ثلاثة أيام بمعسكر، ولم يطلع على مؤسسات البلاد وتقاليدها، أما القديس Poiret فقد زار بايلك الشرق لكنه أطلق في كتابه العنانَ للبديع بشكل رهيب.

ثم يمضي إيميريت ليعرفنا بأهم الأسرى والعبيد الذين كتبوا حول الجزائر كالأسير الذي اشتراه الثالوثيون، وكان قد ترك مذكرات عام 1785م (لم يذكر اسمه) وDumont الذي أمضى 34 سنة عبدا بالجزائر، ولكنه اتصف بالمبالغة الكبيرة حتى صار الاعتماد عليه صعبا للغاية، فقد ذكر بأن بالجزائر نعاجا أذيالها طويلة تُحمل على عربات ذات عجلتين، وأن طول عنقود العنب قدم ونصف.

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

ويشير إيميريت أخيرا إلى كتاب باننتي Pananti وينعته بـ "السطحي" مخالفا بذلك ظن صاحبه أنه ضمّنه معطيات تشير إلى ثقافته وتمرسه، منبها إلى أنه أوصى بتوجيه حملة ضد الجزائر وإيجاد مستوطنة أوروبية على سواحل إفريقيا، فكان له أثر سياسي خاصة بعد أن استخدمه ناشر عمل القديس Reynal حول تجارة الأوربيين بإفريقيا رغم أنه لم يقدم سوى معطيات ثانوية عن الجزائر في بداية القرن 19.

في القسم الثالث من مقال إيميريت حديث عن قيمة مذكرات تيدينا التاريخية، والتي تعتبر اعترافات بالأخطاء التي ارتكبها المؤلف دون انتظار "صفح منا"، وقد ظل على ديانة أسرته، بورجوازيا شجاعا حتى وإن كانت حيويته قد أدت به إلى طيش وتهور، إن هذه المذكرات– حسب إيميريت دائما– هي الوحيدة التي كتبت حول الجهة الغربية من الجزائر في القرن 18م، وقد تعجب من أن أحدا لم يدرسها حتى هذا الوقت (1948).

صحيح أن هذا الأسير كان ساذجا فلم يجمع معطيات ثمينة حول حياة "الأهالي" (كما يسميهم إيميريت مستخدما مصطلحات الفترة الاستعمارية) الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولكن كانت له ميزة العيش مع شخصيات هامة على رأسها الباي الكبير، ويعود إيميريت مجددا إلى التذكير بأن تيدينا لم يشأ سوى قول الحقيقة، ثم يعرج على أهم مصدر محلي تحدث عن الباي المذكور وهو– في تقديره– "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" لابن سحنون الراشدي الذي يظن الناس أنه بالغ في ذكر خصال الباي لكن مذكرات تيدينا جاءت لتؤكد معطياته بشكل واضح؛ فهي تتحدث عن الباي الشجاع الذي يحافظ على عادات المجتمع، ولا يحرم نفسه شرب الخمر لأنه بعيد عن التعصب، وقد زار ليفورن ومرسيليا وكان يعرف الإيطالية جيدا وبعضا من الفرانكا، ويبحث عن التعاون مع المسيحيين، ومن ذلك تثمينه لقدراتهم الإدارية.

يرى إيميريت أن تيدينا أثبت أن بايلك الغرب صار غنيا زمن الباي الكبير، وهو ما يظهر من خلال التصدير وعلو قيمة الدنوش التي تُبعث إلى داي الجزائر، ويصل من خلال تقديمه لهذه المذكرات إلى أن الربع الأخير من القرن 18 يمكن اعتباره نهضة جزائرية، ويأسف لأنها توقفت بسبب الثورات الداخلية وحروب "الإمبراطورية" التي أعادت "الفوضى المهلكة"، ثم

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

يتساءل في الأخير: هل كانت هذه الحضارة الإسلامية المتواضعة بشمال إفريقيا قادرة على النهوض باعتمادها على نفسها لو كانت ظروف السياسة الخارجية أحسن؟ ولم ينسَ التنبيه إلى أن على المؤرخين الاهتمام بهذه المسألة اعتمادا على الوثائق المعروفة وتلك التي لا ينبغي التخلي عن البحث عنها.

وابتداء من الصفحة 157 يأتي عرض مذكرات تيدينا...

10– **أنيس الغريب والمسافر**[12]: ارتقى مسلم بن عبد القادر إلى درجة باش كاتب في عهد الباي حسن بن موسى الذي تولى حكم البايلك عام 1826م بينما نقرأ في عنوان دلباش: أنه باش دفتار لدى الباي حسن بين 1800 و1813م، وفي هذا خطأ لأنه تولى الكتابة لدى حسن قبل أن يكون بايا، كما ينسِب الكتاب إلى مسلم بن محمد بينما هو معروف باسم والده عبد القادر. (وقد جاء في ترجمة الأستاذ رابح بونار للمؤلِّف عند تحقيقه لأنيس الغريب والمسافر قوله: مسلّم – بتشديد اللام – بن عبد القادر الوهراني كما جاء في أول كتابه "أنيس الغريب والمسافر"، وجاء في كتاب الديوان المطرب أنه محمد بن مسلم الوهراني، وهي زيادة لا نجد لها مستندا صحيحا[13].

وتبعا لهذا الموضوع الخاص بانتفاضات الدرقاوية ضد الحكم العثماني بالجزائر يبدأ دلباش حديثه عن درقاوة دون مقدمة عن الكتاب أو صاحبه، فيذكر نسبها ومعناها في ثلاث حالات اعتمادا على أسترهازي، ثم يقسم العمل إلى مراحل:

1- 1800 – 1805م
2- 1805 – 1807م
3- 1807 – 1808م
4- 1813–1818 م

وخلال هذه المراحل الأربع يعالج الموضوعُ علاقة الصراع التي سادت بين الحكم العثماني بالجزائر والطريقة الدرقاوية حتى 1813م والذي انتهى:

أ– "بحملة الثلج" التي قادها الباي بوكابوس ضد بوترفاس صهر ابن الشريف الدرقاوي بجبال ترارة، والتي نتج عنها تدمير تام لقرية بوترفاس أعقبه سقوط ثلوج كثيفة كادت تقضي على جيش البايلك وهذ هو أصل التسمية.

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

ب– بحملة الباي قارة بغلي خليفة بوكابوس على بني مراد الذين تم سحقهم لكن آغا الدوايرقدور ابن إسماعيل وقايد الزمالة محمد بن قدور لقيا حتفهما في هذه الأحداث، وفي هذا الإطار تحرك قارة بغلي على مستوى جبال ترارة ووصل حتى تاجرة، ثم عاد إلى تلمسان ومنها إلى معسكر ليلتحق بوهران، وينهي كلامه بعبارة "كل شيء هادئ"...

استنتاج عام:

– اهتم الفرنسيون بالتأليف الذي كان خلال العهد العثماني؛ فجمعوا المخطوطات وصنفوها وحققوا بعضها ونشروه، وكانت المجلة الإفريقية منبرا مهما سهّل المهمة لهؤلاء الباحثين.

– لجأ الفرنسيون إلى تغييب مؤلفات كثيرة بعدما اطلعوا على ما فيها، ككتاب محمد بن بلقاسم الزاوي حول حملة الباي محمد بن عثمان الكبير على الشلالة، و"در الأعيان" لحسين بن أحمد خوجة بن الشريف، وكتاب "الدوايرالزمالة وحركاتهم" لأحمد بن القاضي باشاغا فرندة، والذي طُبع سنة 1883م بوهران، وكان صاحبه حاكما لجهة فرندة وجنوبها، وقد حضر موقعة قتل بوبراتر بالبيض في 1864م، وعانى غدر الفرنسيين الذين ورطوه في مسائل محلية معقدة مثل قضية بلعباس.

– حملت هذه المؤلفات ملامح العصر الذي كتبت فيه، فقد تحدث أبو راس مثلا عن قضية ادعاء الشرف وما تلاها من تفاعلات اجتماعية تحولت إلى فعل سياسي، وأرخ لفتح وهران، وعالج ابن هطال مسألة إخضاع التيجانية والقبائل الواقعة على الطريق بين معسكر وعين ماضي، وراح تيدينا يعرض– من خلال مذكراته– المشهد العام لإدارة بايلك الغرب.

– اعتمد الفرنسيون على هذه المؤلفات كمصادر للترجمة لبعض الشخصيات الفاعلة كما رأينا مع برنيي حين درس حياة محمد الكبير، بل ترجموا بعضها ترجمة حرفية ورأوا فيها مبالغة شديدة كما هو الحال مع الثغر الجماني.

– كثيرا ما اعتمد الفرنسيون في إنجاز مقالاتهم في المجلة الإفريقية على مؤلفات جزائرية دون إشارة إلى ذلك، فقد كتب Guin مقالا عنوانه:

Quelques notes sur les entreprises des Espagnols, pendant la première occupation d'Oran[14].

ردمد ISSN 2170–1636 EISSN 2600-6324 الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 –2014

وأشار إلى اعتماده على أبي راس الناصر الذي وصفه بالحافظ، لكنه لا يحيل على عنوان الكتاب الذي اعتمد عليه، ولا يذكر صفحة ولا اقتباسا، وهو ما يُشكل على القارئ.

الهوامش:

1) Gorguos, Bou Ras, historien inédit de l'Afrique septentrionale, Vol 05, Année 1861, pp 114 – 124 / pp 210 – 222 / pp376 – 385

2) ARNAUD, Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohammed Abou Ras Ben Ahmed Ben Abd El-Kader EN-NASRI : histoire de l'Afrique septentrionale. V 22, année 1878, pp 434-443 / V 23, année 1879 pp 33-48 et 115- 133 et 211 – 224 et 273 – 294 et 393 – 400 et 449 – 459 / V 24, année 1880, pp 70 – 80 et 133 -146 et 459 – 473 / V 25, année 1881, pp 284 - 306 et 371 - 392 et 467-477 / V 26, année 1882, pp 118-129 et 271-286 et 460-473 / V 27, année 1883, pp 76-88 et 146-160 et 342-354 et 464-478 / V 28, année 1884, pp 301-317.

3) L. GUIN, Beylik d'Oran: de la suppression du manuscrit: les réflexions brillantes de Jupiter ou commentaire du «collier précieux » qu'avait rédigé Mohammed Bou Ras ben En- Naçer. V 31, année 1887, pp 72-80.

4) ضمن كتابه "فتح الرحمن في شرح عقد الجمان".

5) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ج1، ص 92.

6) L. GUIN, Le Collier de perles précieuses ou mention des principaux personnages d'origine noble (de la région) du R'Eris. V 35, année 1891, pp 241-280

7) Delpech (Adrien), Résumé du « Bostane » (Le Jardin) ou Dictionnaire biographique des Saints et des Savants de Tilimsane. V 27, année 1883, pp 380-399 / V 24, année 1884, pp 133-160 et pp 355-371.

8) A. BODIN : L'agrément du lecteur : Notice historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran, par Si Abd-el-Kader el Mecherfi.

9) Louis Bresnier, Expédition de Chellala par le Bey Mohamed el Kebir, V04, année 1860, pp175-186.

10) Gorguos, Notice sur le Bey d'Oran, Mohammed el Kebir, V 01, année 1856, pp 403-416 / pp 454 - 463 et V 02, année 1857, pp 28-46 / pp 223-241

11) M. EMERIT, Les aventures de Thédenat, esclave et ministre d'un Bey d'Afrique (XVIIIe siècle), (Mémoires de Thédenat), Vol 92, Année 1948, pp 143-183 et 331-362.

12) Adrien Delpech, Résumé historique sur les soulèvements des Derk'Aoua de la province d'Oran d'après la chronique d'El-Mossellem Ben Mohammed, Bach Deftar du Bey Hassan de 1800 à 1813. V 18, année 1874, pp 38-58

13) مسلم بن عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 33.

14) V 30, année 1886, pp 312-322.